نظرية الوصمة The Theory of stigmatization

تشير الوصمة "Stigma" الى العملية التي تنسب الاخطاء والاثام الدالة على الانحطاط الخلقي الى اشخاص في المجتمع فتصمهم بصفات بغيضة او سمات تجلب لهم العار او تثير حولهم الشائعات ولذلك تشير هذه العملية الى اكثر من مجرد الفعل الرسمي من جانب المجتمع تجاه العضو الذي اساء التصرف او كشف عن أي اختلاف ملحوظ عن بقية الاعضاء ويتمثل الاسهام المباشر الذي تمَّ في نظرية الوصمة فيما اثاره كوفمان "E.Goffman" في كتابه عن الوصمة "Stigma" حيث يشير الى الانحراف باعتباره طريقة في تحديد موقف معين او اسلوبا للحكم على موقف محدد. وقد لوحظ وجود هذا التوجيه الفكري عند ((جورج هربوت ميد)) الذي حدد معالم نظرية الوصمة الجنائية وذلك من خلال التركيز على حجم العقوبات المفروضة على مخالفي القانون ونوعها فذهب الى ان العقوبات الصارمة المرتبطة بالمتابعة والمقاضاة مسألة تتعارض مع اعادة تكييف المنحرف كما ان الاجراءات العدوانية التي تتخذ نحو مخالفي القانون تؤدي الى تدمير عملية الاتصال بينهم وبين المجتمع مما يخلق روح العداوة عند المنحرف وينطوي توجيه (ميد) هذا على اعتراف جزئي (بالانحراف الثانوي) يظهر في تاكيده المستمر على ان نظام العقوبات الطاغية والصارمة هو نظام فاشل تماما وان فشله هذا لا يقتصر على عجزه عن ردع الانحراف فقط وانما يمتد الى مظهر اخر وهو انه يعمل باستمرار على الاحتفاظ (بطبقة اجرامية) وذلك لان المبالغة في تطبيق الجزاءات وعدم الاتساق في تنفيذها يثير الحقد و العداوة عند المجرم. كما تؤكد هذه الفكرة على ان الاتجاه العدائي من جانب المجتمع يؤدي الى مزيد من الجرائم وان عدم الاتساق في فرض العقوبات هو اهم ما يعرض الشباب (المسالك اجرامية) او (لاحتراف الجرائم) وخاصة من خلال احساسهم المتصاعد بالظلم. اذ انه مهما كانت فداحه الذنب الذي يرتكبه شخص ما فربما تكون هناك درجات من الاجرام لم يصل اليها بعد ولكن اذا شعر شعورا حقيقيا وعميقا بان المجتمع يتصرف نحوه بطريقة طاغية وعنيفة فان النتيجة الطبيعية لهذا الاحساس

هي اغترابه عن المجتمع والنظر الى زملائه من المجرمين باعتبارهم الاشخاص الذين يعاملونه باحترام ورفق. ولذلك فقد يترك السجين السجن وهو عدو للمجتمع يتميز بانه اكثر ميلا من ذي قبل الى مواصلة الانحراف الاجرامي. واذن فان عملية التجريح تبرز عامل الاحساس بالظلم وتدعمه ويظهر ذلك واضحا عند الغالبية العظمى من المعوقين فيزيقياً والمثليين جنسياً ومدمني المخدرات والخمور والمرضى عقلياً والجانحين والمجرمين الذين يعبرون دائما عن المشاعر والاحساسات العميقة بالاستياء والظلم والمرارة.

وتعتبر نظرية الوصمة المشكلات الاجتماعية كخروج او مخالفة لنظام التوقعات الاجتماعية Social Expectations وتركز هذه النظرية عموما على العمليات التي بموجبها يصنف او يوصم الافراد ويعاملون على انهم منحرفين. ولم تؤكد نظرية الوصمة على التناقضات في البناء الاجتماعي ولا على تأثير المشاركة والاختلاط بالمنحرفين او بالاسوياء بل تركز على الكيفية التي يكوّن بها المنحرف ((هويته الانحرافية Deviant Identity)) والتي في ضوئها يتعرض لمعاملات سيئة وربما يطور شعورا سالبا نحو ذاته. وتستند هذه النظرية على عدة افتراضات وهي:

١. ان رد فعل الآخرين تجاه سلوك الفرد هو الذي يجعله مهتماً بهذا السلوك سواء كان منحرفاً او غير منحرف فالسلوك لا يعرف او ينظر اليه على انه سلوك منحرف في ضوء تعريف عالمي مطلق ولكن في ضوء ردة فعل الآخرين تجاهه ((social Reaction)).
٢. لا يوجد سلوك منحرف بالفطرة او بالوراثة. وان نوع السلوك المنحرف يختلف من مجتمع الى آخر.
٣. ان التمييز الدقيق بين السلوك المنحرف وغير المنحرف ليس سهلا خاصة اذا عرفنا ان اعتبار الانحراف يتغير بتغير الزمان والمكان. ومن انصار هذه النظرية ((جارفينكل Garfinkel)) و ((ليمرت)) و ((بيكر)) و

((ايركسون)) و ((كوفمان)) و ((هربرت ميد)) و ((ووينبرج)) و ((دولاماتيه)) و ((روبنجتون)) و ((ماتزا)).

ويعتقد ((هوارد بيكر H.S. Becker)) على وجه الخصوص ان الانحراف قد يكون نتيجة للتفاعل الاجتماعي وليس دليلا على الهوية المنحرفة فعندما يسلك الفرد للمرة الاولى سلوكاً يعرفه الاخرون على ان منحرف يكون قد وصم بأنه منحرف وان انحرافه يمثل انحرافاً اولياً Primary deviance والتي تعني ان الفرد لازال يعتبر نفسه وسلوكه موائماً ومتفقاً مع سلوك الآخرين في المجتمع.

وعندما يوصم هذا الشخص بأنه منحرف من قبل الاخرين سواء بصورة رسمية او غير رسمية فان احتمالات استمرارية الفرد في التصرف تصرفات تعد منحرفة تزداد وذلك لان الافراد المحيطين به قد كونوا قناعات عنه كمنحرف سواء آتى بسلوك منحرف بعد ذلك او لم يأتِ بسلوك منحرف وهنا يدخل الفرد الى مرحلة الانحراف الثانوي Secondary Deviance فقد وصل الفرد في هذه المرحلة الى مرحلة الاعتقاد بأنه كذلك ويصبح مفهوم الانحراف يرتبط بفهمه لذاته كمنحرف.

ان العنصر الاساسي في هذه النظرية ليس بسلوك الفرد بل ردة فعل المجتمع أي بحقيقة ان الفرد يوصم على انه منحرف. وقد حاول انصار هذه النظرية تطبيقها في تحليل العديد من المشاكل الاجتماعية كالجريمة وانحراف الاحداث وادمان الخمور والمخدرات. هذا ويمثل مفهوم ((الوصمة Stigma)) مفهوماً محورياً في هذه النظرية الى درجة ان كل منحرف اعتبر موصوماً.

وهناك ثلاثة نماذج مختلفة للوصمة وهي:

أولاً: خصائص البدن الممقوتة او مختلف العيوب الفيزيقية.

ثانياً: عيوب الشخصية الفردية كضعف الارادة وتقلب العواطف او شذوذها، وعدم نضج الانفعال وصرامة المعتقدات والاناءة والاضطراب العقلي والادمان والتعاطي والمثلية الجنسية والبطالة ومحاولات الانتحار.

ثالثاً: الوصمة القبلية للعنصر والامة والدين.

وتتميز هذه النماذج الثلاث بأن الافراد الذين تنطبق عليهم يشتركون في خصائص سوسيولوجية واحدة فهناك فرد يشارك في عملية اتصال اجتماعي ويتميز بصفة تفرض ذاتها على الانتباه وتجعل الذين يقابلهم يتحولون عنه طالما لديه ((وصمة)) او يظهر عليه اختلاف غير مرغوب فيه عما يتوقعه الاخرون او الاسوياء الذين يعتقدون من الناحية النظرية على الاقل. ان الشخص الذي يتسم ((بوصمة)) ليس بشرا كاملاً. ويقومون بعملية تصنيف لنوعيات معينة او انهم يمارسون التمييز الذي يقللون بواسطته وعلى نحو فعال من فرص الفرد الموصوم في الحياة فيؤسسون بذلك نظرية في الوصمة او ايدولوجية لتفسير نقص هذا الفرد او ضآلته تضع في اعتبارها الخطر الذي يشكله. كما يميلون في الوقت ذاته الى اضافة عدد كبير من العيوب او النقائض اعتمادا على وجود الخاصية الاساسية او الاصلية. وفضلا عن ذلك فربما ينظر هؤلاء الاسوياء الى الاستجابة الدفاعية للموصوم تجاه موقفه باعتبارها استجابة مباشرة لنقصه او عيبه. أي انهم يعتبرون كلا من (النقص) و (الاستجابة) كجزاء او عقوبة ازاء شئ فعله هذا الفرد او والديه او قبيلته وبالتالي يكون هذان العاملان بمثابة مبررين لمعاملة الاسوياء للمنحرفين.

ولكن اذا كان ذلك هو حال استجابة الاسوياء تجاه الموصومين فكيف يستجيب الموصوم تجاه موقفه هو؟

هناك ثلاث استجابات ممكنة هي:

١. ان يتجه الموصوم في بعض الحالات الى اجراء محاولة مباشرة لتصحيح ما اعتبره اساسا موضوعيا لفشله كأن يلجأ الى العمليات الجراحية المختلفة وضروب العلاج و الاصلاح المتعددة.
٢. ربما يحاول الشخص الموصوم تصحيح حالته هذه على نحو غير مباشر عن طريق تكريس جهود مركزة في المجالات التي فشل فيها كما هو الحال بالنسبة للشخص الكسيح الذي يتعلم السباحة او القيادة او لعبة التنس او الشخص الاعمى الذي يصبح خبيرا في تسلق الجبال.

٣. وقد يصطدم الشخص (الممقوت)، بما يسمى الواقع فيحاول استخدام تفسير غير عادي لطابع هويته الاجتماعية.

ومع ان الاستجابات السابقة من جانب السوي والموصوم يمكن ان تحدث في فترات متقطعة ومنفصلة الا ان هذه النظرية تشير الى ضرورة التأكيد على الاحتكاكات المختلطة وعلى اللحظات التي يكون الموصوم والسوي فيها في نفس (الموقف الاجتماعي) بل يكون كل منهما حاضراً في الوجود الفيزيقي المباشر للآخر.

د. رباح مجيد الهيتي